تفسير أبي السعود *: طريقته في العمل بالرواية ومنهجه في توظيف القراءات القرآنية

للأستاذ العربي شاوش

إن تنوع المشارب العلمية من شأنه أن يعكس تنوعا في الشخصية العلمية وثقافتها، فهيمنة بعض الجوانب العلمية لدى الشيوخ والملازمين كطغيان الجانب الأدبي أو التاريخي أو اللغوي أو البلاغي لدى مختلف الشيوخ خلق لدى المفسر روافد علمية متنوعة تجلت ملامحها من خلال تفسيره، وساعدته في نظره إلى النص القرآني. فهو المفسر الشاعر كما ذكر صاحب الأعلام [1]. والفقيه الأصولي والمفسر الشاعر العارف باللغات [2] ... وذكرت دائرة المعارف الإسلامية [3] أنه مفسر مشهور وفقيه حنفي، وشيخ الإسلام، وهي أوصاف نلاحظ بصماتها عند النظر في منهجية تفسيره إذ تعبر أساسا عن جملة علوم ووسائل مساعدة وظفت لفهم كتاب الله بطريقة معينة، كما لم نجد من وصف المفسر بالتصوف كما وصف أبوه سابقا، ويرجع ذلك في اعتقادي للظروف السياسية العامة والخاصة المحيطة بالأمة، وبالمفسر.

وعمل أبي السعود يعكس التنوع المشار إليه سابقا :

1 – أبو السعود المفسر : فهو صاحب التفسير الذي قال عنه صاحب البدر الطالع «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم وهو من أجل التفاسير وأحسنها وأكثرها تحقيقا وتدقيقا أهداه للسلطان سليمان خان... وأصبح المرجع المعتمد فيما يتعلق بالعلم»[4].

(*) هو أبو السعود بن محمد بن مصطفى العماد (898 - 982 هـ) من مواليد إحدى قرى قسطنطينية في بيت علم وجاه. تولى القضاء والإفتاء وكان مقربا من السلطان سليمان وابنه سليم الثاني له مشاركة في العلوم الإسلامية والأدب.

(1) الأعلام ج 7 ط 3 ، 1969 ص 288.

(2) معجم المؤلفين ج 11 ص 301.

(3) ج 1 ص 489.

(4) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ج 1 ص 261.

وقال عنه صاحب الفوائد : «وهو تفسير حسن ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، متضمن لطائف ونكات ومشتمل على فوائد وإشارات ... وانتشرت نسخه في الأقطار وتلقي بالقبول من الفحول الكبار لحسن سبكه ولطف تعبيره فصار يقال له خطيب المفسرين، ومن المعلوم أن تفسير أحد سواه بعد الكشاف، والقاضي، لم يبلغ مبلغه في الاعتبار والاشتهار» [5].

وبخصوص أهداف هذا التفسير فيما أرى فيمكن تقسيمها إلى : عامة وفرعية، فالهدف العام الكبير هو حاجة الأمة في ذلك الظرف بالذات إلى تفسير على غرار "الكشاف" في عصره، يوحد الأجناس والشعوب تحت راية الخلافة العثمانية السنية، ويبرز ظاهرة الإعجاز البلاغي البياني حتى يتشبع كل ذي عقل سليم بمعاني التنزيل وسر إعجازه، لفظا ومعنى، في وقت يهدد الامتداد الشنيعي فيه بابتلاع الإمبراطورية، ويكفي أن نعلم أن المولى محمد باقر المجلسي ألف كتاب «بحار الأنوار» بث فيه منابع المذهب الشيعي وألف «حق اليقين» كان سببا في تشيع سبعين ألف سني [6].

كما أن إسماعيل صاحب الدولة الصفوية اقتبست منه الحركة قوتها وكان شعارها (لاإله إلا الله وعلي ولي الله) وهي حركة خالية من روح التسامح، وأعلن وجوب سب الخلفاء الراشدين ولا يقبل غير التشيع، وأنه كما ورد في كتاب عقيدة الشيعة «إننا تخلصنا من هؤلاء الملوك والخلفاء الأجانب من العرب والتركمان والعثمانيين الذين حكموا إيران مدة طويلة في الماضي» [7].

ثم هدف آخر يرتبط بما يشكله موضوع الإعجاز (القديم - الجديد) من الخطورة، إذ الناس سرعان ما ترتاب في إعجاز القرآن فتنتشر شبه الملحدين في الإسلام وقد اتضح رد أبي السعود على هؤلاء في ثنايا تفسيره [8] وفي مقدمته، حيث شكواه من زيغ وإلحاد وفسق أبناء الزمان.

---

(5) الفوائد البهية ص 82.

(6) عقيدة الشيعة (تاريخ الاسلام في إيران والعراق) دوايت دونلدسن تعريب ع م مكتبة الخانجي - مطبعة السعادة بجوار مصر : أكتوبر 1946 ص 302.

(7) عقيدة الشيعة ص 297.

(8) إرشاد العقل السليم، المقدمة وغيرها. وقد تقدمت الإشارة لمواطن ذلك ويسميه من يطلب فتواه بقامع الزيغ والضلال.

وهذه الأهداف العامة لا تنفي وجود أهداف فرعية تندرج تحت الأهداف الكبيرة ويمكن تقسيمها إلى :

أ) عقائدية سياسية.

ب) وأدبية بلاغية علمية.

ج) وتاريخية اجتماعية.

ك) وفقهية.

فبخصوص النقطة الأولى (أ) يندرج تحتها الرد على الملاحدة عموما وعلى أهل الاعتزال خصوصا ونشر تفسير ينافس مكانة "الكشاف" والسعي لوحدة الأمة الإسلامية. وفي النقطة (ب) يمكن تقسيمها إلى فرعين اثنين فرع أول ذي جانب بلاغي محض يندرج تحته تعميق نظرية النظم، والتركيز على التناسب بين الآيات والسور، والإشارة والوقوف عند الإعجاز الأسلوبي للقرآن، وفرع ثان يركز على الدعوة لإعمال الرأي في القرآن والاجتهاد فيه، والتحقيق والتدقيق في المعاني، والتنبيه على الإعجاز بالغيب، والإعجاز بالآيات الكونية للمتدبر. وتحت الهدف الفرعي الثالث (ج) استغلال التاريخ وتوظيفه : أخذ العبرة التاريخية، ويرتبط بهذا الدعوة للزهد في الدنيا، وفي الهدف الفرعي الرابع (د) : بسط المذهب الحنفي، والحث على الاجتهاد تبعا لتطور الأعصار والأزمان.

هذه الخطوط العريضة هي مجمل القضايا التي طرحها أبو السعود في تفسيره وإن سلط الأضواء على بعضها أكثر من البعض الآخر، أو تداخلت فيما بينها، كما أنه قد يركز على الجانب البياني أكثر من الجانب الفقهي مثلا.

قال صاحب العقد المنظوم مستعرضا ظروف تأليفه : «وقد عاقه الدرس والفتوى والاشتغال بما هو أهم وأقوى عن التفرغ للتصنيف سوى أنه اختلس فرصا وصرفها إلى التفسير الشريف، وقد أتى فيه بما لم تسمح به الأذهان ولم تقرع به الآذان فصدق المثل السائر كم ترك الأول للآخر وسماه إرشاد العقل السليم إلى

مزايا الكتاب الكريم، ولما وصل فيه الى آخر سورة (ص) ورد التقاضي من طرف السلطان سليمان خان وظهر كمال الرغبة والانتظار فلم يمكن التوقف والفرار فبيض الموجود وأرسله ... وبعد ذلك تيسر له الختام ورتبه بالكمال والتمام وقد أرسله إلى السلطان ثانيا بعد إتمامه، وزاد تكريم السلطان له بعد ذلك فزاد في وظيفته مائة أخرى إضافة لما كان قدر له.»[9].

وقال سركيس «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ويعرف بتفسير أبي السعود ... جمع فيه بين درر الكشاف وغرر أنواع التنزيل وأضاف إلى ذلك ما ألفاه في تصانيف الكتب من جواهر الحقائق [10]».

ويظهر أن أهم التصانيف التي استفاد منها هي ما ذكره صاحب الكواكب قال : «جمع فيه ما في تفسير البيضاوي وزاد فيه زيادات حسنة من تفسير القرطبي، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، وغيرها [11].

وقد ذاع أمر هذا التفسير في البلاد العثمانية وخارجها [12].

طريقته في العمل بالرواية

المبحث الأول : توظيفه القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين

لا يشك أحد في ان أحسن وأصح الطرق في التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن فما كان مجملا في مكان يفصل في غيره، وما كان مختصرا هنا يبسط هناك، وهكذا [13]. وهو أمر طبيعي تدل عليه وقائع القرآن، فقصة فرعون وموسى، وموسى مع قومه،

---

(9) العقد المنظوم ج 2 ص (289 - 290) وقد صنف أبو السعود تفسيره حينما كان مفتيا بالقسطنطينة ذلك المنصب الذي قضى به 30 سنة وانظر الفوائد البهية ص 81.

(10) سركيس : معجم المطبوعات العربية ج 1 ص 316.

(11) الكواكب السائرة ج 3 ص 35.

(12) دائرة المعارف الإسلامية ج 1. 490 وفيها : وشرحه البعض وطبع مرات. وذكر له صاحب الاعلام في التفسير قصة هاروت وماروت ج 7 ص 288. كما أن له حواش على الكشاف، انظر العقد المنظوم ج 2 ص 290.

(13) ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص 93.

وعيسى والحواريين، وآدم وسجود الملائكة، وإبليس وتكبره أوجزت في مواضع وفصلت في أخر وأجملت في سورة وبينت في سورة أخرى. وما يقال عن الأحداث يقال عن الأحكام والأزمنة والبقاع [14] وإن كان هذا الجانب طبعا لا يستوعب القرآن كله، فينهض الأثر واللغة وبقية العلوم المساعدة بمهمة التوضيح كما سيتضح فيما سيقبل من مباحث.

وقد ركن أبو السعود كثيرا للقرآن نفسه في توضيح ما يمكن أن يوضحه بنفسه، ليس على مستوى المواضيع والمترادفات فقط، بل كذلك على مستوى توضيح الظواهر النحوية والبلاغية وغيرهما، فيقارن هذه الظاهرة بتلك، ويشير إلى أن هذه الآية تنظر إلى مثيلاتها من الآيات الأخرى، وهكذا ينثر درر القرآن ويعيد ترتيبها من جديد حسب الموضوع المطروح أمامه أيا كان نوعه، والأمثلة على هذا كثيرة لا داعي لسردها : مثلا عند قوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ نجده يوضح الليلة بما ورد في قوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ فيرى أن الليلة المباركة هي ليلة القدر، وإن كان ذكر معها أقوالا أخرى كليلة البراءة حيث أنزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا [15] كما يجعل القرآن مقياسا لتصحيح بعض الأقوال كما في قوله تعالى ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ يقول أبو السعود : «قيل لعل الإتيان بفعل الطمع لعدم الجزم منه عليه السلام بأنهم هم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم، فقد روي أن مصر إنما فتحت في زمن داود عليه السلام، ولا يساعده قوله تعالى : ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ فإن المتبادر استخلاف نفس المستضعفين لا استخلاف أولادهم [16]. وفي إطار حديثه عن الأمور العامة النحوية وغيرها نجده يلتمس الأمور المتشابهة

---

(14) محمد حسين علي الصغير : المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم (دراسة مقارنة) 1403هـ - 1983 المؤسسة الجامعية بيروت ص 81.

(15) أبو السعود : إرشاد العقل السليم ج 8 ص 58 الاية 3 الدخان، ثم 1 القدر.

(16) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 3 ص 263، الآية 129 الأعراف و137 الأعراف.

ويحشرها بجانب بعضها للتوضيح ففي قوله تعالى ﴿الذين يومنون بالغيب﴾ يقول : «فالباء صلة للإيمان إما بتضمينه معنى الاعتراف أو بجعله مجازا من الوثوق، وهو واقع موقع المفعول به، وإما مصدر على حاله كالغيبة فالباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل كما من قوله تعالى ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ وقوله تعالى ﴿ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ أي يومنون متلبسين بالغيبة إما عن المومن به أي غائبين عن النبي ﷺ غير مشاهدين لما فيه من شواهد النبوة ...»[17].

فانظر كيف ربط الآيات الثلاث ببعضها في معرض توضيحه لمعنى الباء، ووظيفتها بين جمل الآيات، كما يعالج الأمور البلاغية على هاته الشاكلة ففي قوله تعالى ﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾[18] يقول : « ... فنسبته إلى الله سبحانه إما عن طريق الاستعارة والتمثيل لإفادة كمال شناعة جنايتهم أي يعاملون معاملة الخادعين، وإما على طريقة المجاز العقلي بأن ينسب إليه تعالى ما حقه أن ينسب إلى الرسول ﷺ إبانة لمكانته عنده تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾[19] وقوله تعالى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[20] مع إفادة كمال الشناعة كما مر»[21]. وهكذا يجعل القرآن مصدره الأول في توضيح كل ما غمض عليه من نكب في مختلف العلوم والمعاني، آخذا بعين الاعتبار الناسخ والمنسوخ[22] وما جاء في الكتب السابقة (شريعة من قبلنا)[23] بل معتمدا القرآن في نظره إلى السنة باعتبار أن القرآن قد ينسخ السنة كالأمر عند قوله تعالى ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن

(17) أبو السعود : إرشاد العقل السليم ج 1 ص 30-31 والآيات على التتابع 3 البقرة/49 الأنبياء/52 يوسف.

(18) البقرة 9.

(19) الفتح 10.

(20) النساء 80.

(21) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 40 - 41.

(22) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 143 - 274 ج 443.

(23) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 195.

باشـــروهن ﴾ يقول أبو السعود : وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة [24].

وأريد أن أشير إلى أن أبا السعود العقلاني لم ينس مكانة السنة بالنسبة للقرآن بل اعتمد هذا الجانب وتمكن منه كركن أصيل في فهم كتاب الله تعالى، وقد استغل استغلالا حسنا وموفقا حديث الرسول الكريم وصحابته وتابعيهم، فتطالعنا في صفحات التفسير أسماء يتكرر ذكرها، ولعلنا ذكرنا بعضها في حديثنا عن المصادر[25] فلا داعي للتكرار باعتبار أن الموضوع يتناول طريقة التصرف لا غير وهنا التصرف في السنة. ولعل ما سيذكر يعكس صورة ولو بسيطة عن هذا التصرف.

وظف أبو السعود الحديث الشريف في خدمة كثير من القضايا المتنوعة : التفسيرية المحضة كالتماس معنى آية ما، والنحوية : كتدعيم قضية نحوية أو توضيحها أو مسألة أصولية أو توضيح سبب نزول، وهكذا ... أو للاستشهاد على قضايا لغوية .. فهو يستفيد من الحديث في كل موضع رأى أن معناه مناسب له في ذلك. وكمثال على جزئية لغوية قول تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا ﴾ يقول : « ... ويروى عن ابن عباس أنه قال : سمي الإنسان إنسانا لأنه عهد إليه فنسي ...» [26]. وفي القضايا النحوية قوله تعالى مثلا ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ ودون الخوض في موقف أبي السعود من (لو) هذه فذلك مكانه في الجانب النحوي، أشير إلى الجانب الذي يهمنا هنا وهو الاستشهاد بالحديث يقول : «كلمة لو لتعليق حصول أمر ماض –هو الجزاء– بحصول أمر مفروض فيه – هو الشرط – لما بينهما من الدوران حقيقة وادعاء [ويقول] ... كما في قوله ﷺ في بنت أبي سلمة : لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي إنها لابنة أخي من

(24) أبو السعود : إرشاد العقل السليم ج 1 ص : 201-202 وفيه عن قتادة : كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها فنهوا عن ذلك، الآية 187 البقرة، ويلحق بالنسخ الإجماع فقد يغير حكما في القرآن ج 4 من إرشاد العقل السليم ص 76.

(25) انظر رسالة الباحث منهجية أبي السعود في تفسيره إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم ص 101 وما بعدها.

(26) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 39 الآية 8 البقرة.

الرضاعة، فإن المدار المعتبر في ضمن الشرط أعني كونها ابنة أخيه عليه السلام من الرضاعة غير مناف لا نتفائه الذي هو كونها ربيبته عليه السلام بل مجامع له ومن ضرورته مجامعة أثريهما أعني الحرمة الناشئة من كونها ربيبته عليه السلام والحرمة الناشئة من كونها ابنة أخيه من الرضاعة ... [27].

وبخصوص السند وما يتعلق به، تنوع شكل الحديث في تفسيره، فتارة يسوق الحديث بسنده ومتنه، وإن كان هذا نادرا، لا يكاد يتعدى أصابع اليد الواحدة على أبعد تقدير، وهو لا يسوق السند إلا في حالتين متناقضتين - حسب ما يبدو لي - إما في حالة تتطلب إثارة الاهتمام ودفع المسؤولية مسؤولية التوثيق، وإما في حالة مغايرة، وتثير الاهتمام كذلك كموقف يتطلب الشك والوقوف، كاعتبار الحديث على درجة من الضعف ... الخ ففي الحالة الثانية عند إبليس حين بعثه الله عز وجل لمحاربة الجن حيث كانوا سكان الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء فقتلوهم إلا قليلا... [28] والحديث هنا حول الملائكة. والضحاك معروف لدى أهل الجرح والتعديل بضعفه ومثله رواية الضحاك عن ابن عباس في عمر الدنيا[29] .

وأما الحالة الأولى، فما ذكره عند قوله تعالى﴿كنتم خير *أمة أخرجت للناس*﴾. يقول : «وروى الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى ﴿كنتم خير *أمة أخرجت للناس*﴾ أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى ...»[30] وأبو السعود لا يكاد يذكر مخرج الحديث إلا في حالات تقارب عدد أصابع اليد الواحدة كذلك، فإذا تقدم ذكر الترمذي قبل قليل فإنه يذكر البخاري في حديث الرؤيا و«أن النبي ﷺ رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس...»[31].

(27) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 55-56 والآية 20 البقرة.

(28) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 80. الآية السابقة 30 البقرة.

(29) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 121.

(30) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 2 ص 70-71 الاية 110 البقرة.

(31) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 115.

والأغلب في شأن أبي السعود أن يورد الحديث بالمعنى فقط وهذا يتمشى مع هدفه العام، وغالبا ما يورد هذا المعنى بصيغة التمريض [32] (روي) المشعرة بضعف الرواية دون ذكر اسم الراوي، أو يذكره بصيغة (وفي الحديث) وكثيرا ما يفوض العلم به إلى الله تعالى، ونادرا جدا ما يذكر الحديث ويشير إلى أنه مرفوع، ويذكر أحيانا جزءا من الحديث وطرفا منه فقط. وعلى العكس من ذلك قد يذكر أوجه رواية صحابي واحد كما قد يشير أحيانا قليلة إلى شهرة الحديث، وقد يسوق الرواية والمعنى باقتضاب شديد، والأمثلة على هذا متناثرة في التفسير. ونتيجة تتبع أبي السعود للمعنى والتدقيق فيه نجد عنده ظاهرة الاستطراد، لكنه الاستطراد داخل إطار التفسير نفسه، وليس خارجا عنه، شأن الرازي الذي يقال عنه بأن تفسيره فيه كل شيء إلا التفسير [33] فأبو السعود بالعكس من ذلك لا تجد في تفسيره إلا التفسير، فأثناء شرحه لحديث استشهد به على نص أو آية قرآنية، أو معنى ما يتتبع معنى ذلك الحديث ويوضحه بدوره بأمثلة ولو مدرسية أحيانا، ثم يتبع ذلك بالنصوص القرآنية الشاهدة والحديثية والشعرية مع شرح كلمات النص المستطرد له دائما، وهكذا ... [34]. ويعرض روايات متعددة أحيانا لمجاهد ولطاووس عن ابن عباس، وعكرمة عن ابن عباس، وأقوال أخرى غير منسوبة في شأن الكلمات التي ابتلى بها الله إبراهيم في قوله تعالى {وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات} وبعد الاختلاف في هذه الكلمات وتعدد الروايات بشأنها ووقت الابتلاء، قبل النبوة، أم بعدها، يتدخل أبو السعود ويحسم الأمر ويجيب عنه فيقول « ... ثم قيل إنما وقع هذا الابتلاء قبل النبوة وهو الظاهر وقيل بعدها لأنه يقتضي سابقة، وأجيب بأن مطلق الوحي لا يستلزم البعثة إلى

---

(32) وصيغة التمريض هذه لا تجوز عند العلماء في الأحاديث الصحيحة بل ينبغي ان تذكر هذه بصيغة الجزم : قال رسول الله ﷺ هذا بالنسبة لمن نقل حديثا صحيحا بغير إسناده، وإنما تجب صيغة التمريض هذه في الأحاديث الضعيفة (روي) أو بلغنا واذا تيقن ضعفه عليه أن يبينه لئلا يغتر به القارئ، وقد وقع في هذا الخطإ كثير من المؤلفين.

(33) عبد العزيز المجذوب : الرازي من خلال تفسيره. الدار العربية للكتاب ط 2-1980 ص 78.

(34) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 72.

الخلق» [35] وهو في هذا التصرف يبدو متأثرا بمهنة الإفتاء، وبشأن الرواية وتوظيفها، ينظر إليها أحيانا نظرة تنازلية عبرالأجيال، وعملية، فيقول : هذا قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وبه أخذ مجاهد ومقاتل، وهو اختيار الفراء والزجاج [36] وتكثر الاستشهادات الحديثية لدى المفسر في الأمور الفقهية كما تتكرر لديه في المواضيع التي فيها خلاف كقضية الحج والعمرة[37] وفي المواطن التي تستدعي أخذ العبرة من حال الأمم الماضية وتبرز المعجزات، وفي هذا الأمر الأخير لا يقتصر على الأحاديث بل يسوق الروايات المتنوعة والقصص الطويلة كذلك، وهنا يشرئب اهتمامه التاريخي العام وغرامه بالقصص، وسيتضح موقفه منها بعد قليل. وإذا كان أبو السعود يدرك أهمية الأحاديث المشهورة وينص عليها بأنها مشهورة فإنه يعتبر كذلك أخبار الآحاد فعند الآية ﴿*فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة* ...﴾ يقول : «وفيه دليل على أن التفقه في الدين من فروض الكفاية وأن يكون غرض المتعلم الاستقامة والإقامة لا الترفع على العباد والتبسط في البلاد كما هو ديدن أبناء الزمان ... واستدل به على أن اخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة إلى التفقه لتنذر فرقتها كي يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر [من][38] الأخبار مالم يتواتر لم يفد ذلك ...»[39]. ويؤكد نفس المعنى عند قوله تعالى ﴿*ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا*﴾ يقول : « ... وفي ترتيب الأمر بالتبين على المخبر إشارة إلى قبول خبر الواحد العدل في بعض المواد»[40].

وفي موضوع دور الحديث ووظيفته في أحكام القرآن ونسخها نجده يجعل الآية ﴿ *فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة* ﴾ منسوخة

---

(35) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 154-155 والآية 124 البقرة.

(36) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 8 ص 60.

(37) أبو السعود، إرشاد العقل السليم : ج 1 ص 206.

(38) من إضافتي.

(39) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 4 ص 206-11-112، والآية 122 التوبة.

(40) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 8 : 118 والآية 6 الحجرات.

في حق المحصن برجم النبي ﷺ لماعز، ويجعل ذلك من باب نسخ الكتاب بالسنة يقول : «وقد نسخ في حق المحصن قطعا ويكفينا في تعيين الناسخ القطع بأنه ﷺ قد رجم ماعزا وغيره فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة المشهورة» [41].

المبحث الثاني : موقفه النقدي من التفسير بالمنقول[42].

استفاد أبو السعود وهو يضع تفسيره من تفاسير عديدة ذكرت فيما سبق، لكنه في مجال المنقول لم يكن مرددا فقط للروايات وإنما برزت شخصيته العلمية بما لها من معارف متنوعة في نوع توظيفه لهذه الروايات وتعامله معها على المستوى النقدي. وسأحاول إبراز هذه الجوانب النقدية بأمثلة ملخصا لهذ المعايير النقدية في نهاية هذا المبحث، فإذا كانت هذه المرويات لا تطرح مشكلا معينا بالنسبة إلى التفسير نجده يعرضها هكذا دون إبداء رأي معين – وإن كان الترجيح هو الغالب على تصرفه – غير أنه في أحيان أخرى يتعامل مع الروايات انطلاقا من معايير، من شأنها أن تعكس شخصيته الحقيقية في مضمار فرز الآراء وترجيحها بالرد أو القبول، وسوف أعرض طريقته في نقد الرواية في هذا المبحث على أن أترك المبحث الموالي لجانب القصص الإسرائيلي خاصة والقصص الغريب عامة.

والمفسر إذا تعارضت الروايات لديه يتوقف ويترك القطع، كالأمر عند قوله تعالى ﴿ يا آدام اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ إذ بعد عرضه لروايات متنوعة لاداعي لعرضها يقول « ... وقيل الكل ممكن والأدلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع» [43] وهو موقف موضوعي من الرجل غير أنه في بعض الأحيان وحينما يتبين له وجه الترجيح يشير إلى الأظهر والأشهر [44].

---

(41) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 6 ص 156 والآية 2 النور.

(42) ملاحظة : أشير إلى أن مصطلح النقل أو [النقلي] إنما اكتسب هذه التسمية فقط باعتبار مرجعيته الماثلة في نصوص مكتوبة ...وإلا فإن هذه النصوص خصوصا القطعية الدلالة منها كالقرآن وما صح من الأحاديث النبوية تمثل قمة العقل أو العقلي في أبهى صوره.

(43) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 1 ص 90 الاية 35 البقرة.

(44) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 7 ص 200.

وقد يحقق أمورا أخرى على سبيل الجزم إذا اختلفت فيها آراء الرواة، فإذا قال عكرمة والضحاك في قوله تعالى ﴿ومنهم أميون﴾ أنهم نصارى العرب، وقال آخرون هم قوم من أهل الكتاب، وقال علي : هم المجوس، فإن أبا السعود يؤكد قائلا : «والحق الذي لا محيد عنه أنهم جهلة اليهود ...» [45] وبنفس الإيمان يطرح الأنسب من المعاني عند قوله تعالى ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ إذ بعد تضارب الأقوال فيما يمحى وما يثبت يقول : « ... أو يمحو الأجل والسعادة والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم، والقائلون به يتضرعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبي ﷺ والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات ليشمل الكل، ويدخل في مواد الإنكار دخولا أوليا »[46] ويحتكم بالرجوع إلى النظم الكريم والذوق السليم ليرفض رواية أسماء بنت أبي بكر بشأن معنى الحجاب في قوله تعالى ﴿جعلنا بينك وبين الذين لا يومنون بالآخرة حجابا﴾ يقول : «فالحجاب يحجبهم من أن يدركوك على ما أنت عليه من النبوة ويفهموا قدرك الجليل .. وحمل الحجاب على ماروى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما من أنه لما نزلت سورة "تبت" أقبلت العوراء أم جميل امرأة أبي لهب وفي يدها فهر والنبي قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه فلما رأها قال يا رسول الله لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك قال ﷺ إنها لن تراني وقرأ قرآنا فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول اللهﷺ مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم» [47].

ويفهم من كلامه أحيانا أنه يساوي بين الشعر والحديث ويجعلهما في مرتبة متساوية في مضمار التماس الشاهد النحوي[48] وربما يبدو لدى أصحاب التفسير بالرأي بصفة عامة عدم العناية بدقة الحديث وفحص درجته كما هو الأمر لدى أصحاب

(45) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 1 ص 119 الاية 78 البقرة.

(46) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 5 ص 27 الاية 39 الرعد.

(47) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 5 ص 175 والآية 45 الاسراء.

(48) انظر التفسير، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 166.

التفسير بالمأثور، إذ يحشر الأوائل – ذوو الرأي – الحديث كيفما اتفق ودون ذكر سنده ودون تخريجه مما يجعل القارئ في حيرة من أمره، وإنما هم هؤلاء المعنى فقط، أما عند ذكر السند فالمسؤولية تزال عن عاتق المفسر، ونجد أبا السعود يرجح أحيانا قولا في التفسير معللا له استنادا على ما روي عن ابن عباس ومجاهد (49) ويرد رواية ابن عباس في سبب النزول مبررا هذا الرد وفاحصا كل المنقولات في هذه القضية (50).

وقد يكون مذهب أصحابه هو المقياس أحيانا في رفض الروايات، كما رفض رواية ابن عباس في شأن الموت وأنها في صورة كبش والحياة وأنها في صورة فرس عند قوله تعالى ﴿*الذي خلق الموت والحياة*﴾ معتبرا الموت صفة وجودية مضادة للحياة، وأما كلام ابن عباس فوارد على منهاج التمثيل والتصوير (51) كما يلحق بتوقفه عن إبداء رأيه حين تتعارض الروايات، تفويضه العلم لله تعالى حينما تتعارض الأقوال وتتضارب كما تضاربت في قضية طريقة توصل الشيطان إلى آدم وحواء (52).

وأما بالنسبة للأحاديث المتعلقة بفضائل السور، والتي تذيل بها السور غالبا فقد سقط أبو السعود في شباكها كما سقط غيره من المفسرين مع أن العلماء قالوا «لا يحل رواية الحديث الموضوع في أي باب من الأبواب إلا مقترنا ببيان أنه موضوع مكذوب سواء في ذلك ما يتعلق بالحلال والحرام أو الفضائل أو الترغيب والترهيب أو القصص والتواريخ، ومن رواه من غير بيان وضعه فقد باء بالإثم العظيم وحشر نفسه في عداد الكذابين» (53) وإن كان الباعث لدى مفسرنا على إيراد هذه الأحاديث هو الترغيب نفسه والترهيب في فترة تبرم منها أبو السعود من أبناء زمانه حيث انتشر الإلحاد

(49) انظر التفسير، إرشاد العقل السليم ج 1 ص 170-171.

(50) انظر التفسير، إرشاد العقل السليم ج 5 ص 115.

(51) انظر التفسير، إرشاد العقل السليم ج 9 ص2 الآية 2 الملك .

(52) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 1 ص 91 كما يكثر لديه اللواذ بالله والعياذ به حينما يمر بعذاب مفزع للمجرمين انظر ج 5 ص 56-57.

(53) أبو شهبة : الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 17.

واختلطت الأمم وقويت الحاجة إلى دراسة وتأمل القرآن والاعتبار به، وإذا قال الزهاد والمتصوفة أنهم يضعون الأحاديث للإسلام انطلاقا من تأويلهم للحديث المتواتر «من كذب علي ...» وأنهم يكذبون للنبي ﷺ لا عليه أي لصالحه فإن من العلماء من لا يتفق مع هؤلاء لأن مضمون عملهم يوهم بضعف الإسلام وحاجته إلى دعم وسند مع أن الاسلام قوي وغني عن تزيد أيا كان (54).

وقديما قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القران سورة سورة ؟ فقال «رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق فوضعت هذا حسبة لوجه الله» (55) ويتأسف أبو شهبة لكون بعض حملة العلم ما زالوا يرددون أمثال هذه المرويات ويستولون بها على قلوب العامة والسذج مع أنها قد نص على وضعها واختلاقها كثير من الحفاظ وأئمة النقد (56). ومن الأحاديث الموضوعة المعروفة الحديث المروي أسفله عن أبي بن كعب * (57). وقد ذكره بعض المفسرين في تفاسيرهم كالثعلبي والواحدي والزمخشري والبيضاوي، وقد أخطاؤا في ذلك خطأ شديدا، وقال الحافظ العراقي : لكن من أبرز إسناده منهم كالأولين يعني الثعلبي والواحدي، فهو أبسط لعذره إذ أحال ناظره على الكشف عن سنده وإن كان لا يجوز له السكوت عليه، وأما من لم يبرز سنده وأورده بصيغة الجزم فخطؤه أفحش (58).

والخلاصة أن ترجيحات أبي السعود ومواقفه النقدية العامة للرواية كانت منطلقة من بعض الأسس منها :

(54) د. محمد ابن معجوز : محاضرات في المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ص 211-212-213-214.

(55) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 91.

(56) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 7-8.

(57) * الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في فضل القرآن سورة فسورة، بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى الى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه وأن اثر الوضع بين عليه، ولقد اخطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم انظر علوم الحديث لابن الصلاح تحقيق نور الدين عتر - المكتبة العلمية بيروت 1401-1981 ص 90.

(58) ابن كثير : الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ص : 88.

1 – المقام أو السياق.

2 – الذوق وهو مقياس ذاتي شحذ بالاكتساب والتضلع في علوم البلاغة والأدب عموما.

3 – النظم والجزالة التنزيلية.

4 – التاريخ الذي كان وراء تصحيح كثير من المفاهيم.

5 – مذهب أصحابه الحنفيين الذي كان يوجهه أحيانا كما رأينا في موقفه من الحياة والموت.

6 – موقف أهل السنة والجماعة الذي كان وراء موقفه الإيجابي من الطعون التي كانت تكال سواء للأنبياء والمرسلين عليهم السلام أو لغيرهم.

7 – العقل والنقل : وهو إن جعل حدودا للعقل يقف عندها أمام النصوص الصريحة أو المعجزات والخوارق وما لا يتحمله العقل إلا أنه ظل مجتهدا يعمل رأيه ويأمر بالاجتهاد الذي لا ينبغي أن يخلو منه عصر من العصور في نظره.

8 – ويمكن إضافة معيار (العبرة) وهو ماثل أكثر في المبحث الموالي بحكم ارتباطه بالتاريخ، والقصص، وحياة الأمم السالفة.

المبحث الثالث : موقفه مما يؤثر من تفاسير قصصية في إطار التفسير النقلي

قد يتسائل المرء عن سبب فصل هذا المبحث عن السابق مع أنهما يعالجان قضية واحدة تقريبا أو قضية متداخلة، والجواب أن مبرر تمييز هذا المبحث عن المتقدم أن السابق ارتبط في مجمله بالروايات ذات الصلة والعلاقة بأصول الدين والحرام والحلال ... وما جرى العلماء من صحابة وتابعين ومن بعدهم على التثبت منها والتحري عن رواتها، وأما مرويات مبحثنا هذا فتدور تقريبا حول ما يتعلق بالقصص الاسرائيلي، وأخبار الأمم الماضية، والملاحم والفتن، واسرار الكون، وأحوال يوم القيامة [59]، وهو مبحث له علاقة

(59) أبو شهبة : الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 91.

وطيدة بالتاريخ[60] المجال الذي عني به أبو السعود وغذى به تفسيره في كل نقطة مست ذلك كما غذى التاريخ هذه القصص الاسرائيلية منها وغيرها. وقد يلمس الدارس عناية أبي السعود بهذا الجانب، بل إننا نجد في تفسيره تنصيصه وتمييزه لجانب القصص وما يتعلق به عن جانب العقائد والشرائع، وهما جانبان يقفان على طرفي نقيض، يقول: «ما في القرآن من العلوم منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع، ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية»[61]. ونلاحظ أن أبا السعود استفاد من قصص القرآن وفهم جيدا معناها ومغزاها، وعمق هذا المعنى كثيرا وغذاه بقصص أخرى ذات طبائع مختلفة، وإن كان أبو السعود لم يسق هذه القصص لهدف في ذاتها. بل ومع ما قد يكون لها من غرابة أحيانا إلا أنه يستسيغها نظرا لهدف العبرة الذي يرجوه منها. وهذا عنصر هام طغى على عمل أبي السعود من أوله إلى اخره ولم يغب عن باله قط، وقد نص على هذا العنصر عند حديثه عن قصة فرعون وجنوده وما غشيهم عند شرحه لقوله تعالى ﴿وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ حيث قال: «... واعلم أن هذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخر لها أطم الجبال ونعمة عظيمة لأوائل بني إسرائيل موجبة عليهم شكرها. كذلك اقتصاصه على ما هي عليه من رسول الله ﷺ معجزة جليله تطمئن بها القلوب الأبية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالإذعان. فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها فيالها من عصابة ما أعصاها وطائفة ما أطغاها»[62].

---

(60) كثيرا ما ورد مصطلح إخباري، وعلماء الأخبار، على لسان أبي السعود ويقصد به من ليس له هم إلا القصص كالثعلبي (أنظر الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: أبو شهبة ص74).

(61) أبو السعود: إرشاد العقل السليم ج 6 ص 273 ويرى ابن خلدون أن تضخم التفسير القصصي ناتج عن العوام وهم غير ثقات أرادوا أن ينفق سوقهم وهم مصدر الأخبار فتخيلوا وزادوا وأقبل الرواة عليهم، وصرنا أمام ركام من التفسير القصصي جمعه الثعلبي في كتاب العرائس. انظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه: مصطفى الصاوي الجويني دار المعارف، مصر ط 2، ص 14-15 وانظر المقدمة: تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط3 ج 3، ص 1031-1032.

(62) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 1 ص 101 والآية 50 البقرة.

وإضافة لعنصر العبرة هناك المعجزات الإلهية المتنوعة ذات الصلة بعنصر العبرة إن لم نقل أنها تغذي هذا العنصر وتخدمه كثيرا.

ونجد أبا السعود يشيد بالقصة ودورها في تأدية الوظيفة المرجوة من النص، يقول عند قوله تعالى ﴿ثم ادعهن ياتينك سعيا﴾ وبعد شرحه لعجائب آثار قدرته تعالى وكيف اجتمعت أجزاء الطير : «وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل ويمن الضراعة في الدعاء، وحسن الأدب في السؤال، حيث أراه الله تعالى ما سأله في الحال على أيسر ما يكون في الوجوه، وأرى عزيرا ما أراه بعدما أماته مائة عام»(63).

ولا ينصرف ذهننا إلى أن المقصود بالقصة هي فقط قصة الطير، بل إننا نستشف غرامه بالقصة بصفة عامة ووظيفتها في التأثير علي النفس البشرية، ولذلك ركبها أبو السعود لهدفه. وقد سبق أن ذكرنا موقفا لأبي السعود يلتمس فيه المسوغ لهذه القصص الغريبة في تفسيره، أو بالأحرى التمس لعنصر الغرابة في القصة وجها للقبول وهو تسليمه بكون الخوارق مقبولة في عصر النبوة وغير مستبعدة (64).

ومعنى ذلك أن ما قد لا يستسيغه العقل أحيانا من غريب مضى قد يكون له نصيب من الوجود فوق أرض الواقع وأنه أمر كان بالإمكان أن يكون.

إنما هذا لا يعني أن أبا السعود يستسلم أمام هذا الحشد الهائل من القصص، الإسرائيلي منه، وغيره بل لقد وقف المفسر منه مواقف متنوعة حسب أغراض هذه القصص وما تقصد إليه. وهذه القصص عامة جاءت عن التابعين لاحتمال أخذهم عن أهل الكتاب الذين أسلموا، نعم قد تكون بعض الإسرئيليات صحيحة السند عن ابن عباس مثلا وهذا لا ينفي كونها من إسرائيليات بني إسرائيل وخرافاتهم. فصحة السند عن ابن عباس لا يعني أنها عن

---

(63) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 1 ص 257 والآية السابقة 260 البقرة.

(64) أبو السعود : إرشاد العقل السليم ج 2 ص 251.

النبي ﷺ ولكنها متلقاة عن أهل الكتاب الذين أسلموا، فثبوتها لمن رويت عنه شيء، وكونها مكذوبة شيء اخر. وحتى بالنسبة لوهب بن منبه، وكعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، ليس معنى أنهم هم المختلقون لها، بل هم رواة لها وناقلون لبعض الصحابة والتابعين عن أهل الكتاب وليسوا هم المختلقون وإنما المختلق هم أسلافهم القدماء[65].

وأبو السعود لا يتساهل مع مثل هذه القصص التي لا تنسجم مع المنهج الإسلامي القويم أو روح الشريعة، ففيما يتعلق بقصة داود عليه السلام وامرأته أوريا في قوله تعالى ﴿فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب﴾ يقول أبو السعود «إنك مبتدع مكروه ومكر مخترع بئسما مكروه تمجه الاسماع وتنفر عنه الطباع ويل لمن ابتدعه وأشاعه وتبا لمن اخترعه وأذاعه:»[66]. فانظر كيف عبر عن غضبه المتأجج والذي وصل به إلى درحة الهجوم على من يشيع هذه الفاحشة خصوصاً وأنها تمس شخصية الأنبياء، وبنفس الحدة نجده يتصرف بشأن ما قيل عن يوسف عليه السلام من خرافات وأباطيل قال في معرض حديثه عن قوله تعالى﴿لولا أن رأي برهان ربه ...﴾ وبعد فكه للجوانب اللغوية والنحوية : « ... وقد فسر : همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها ... وقيل ... وقيل. إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها» [67]. وهذا عكس مانجده مثلا عند القرطبي الذي ساق الروايات الإسرائيلية الغريبة دون نقد أو تتبع بالكشف وياليته صان كتابه عنها نظرا لكون ذلك يفتح الباب أمام المستشرقين وأذنابهم للطعن في الإسلام وأنه دين الخرافة [68].

ونفس الموقف الحازم يقفه أبو السعود حين يتبين أن رواية ما من حبك اليهود فيردها معللا لحيثيات ومبررات سردها وأنها إنما

(65) أبو شهبة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص : 95-96.

(66) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 7 ص 222 الآية 24 ص.

(67) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 4 ص 266-267 الآية 24 يوسف.

(68) القصبي محمود زلط : القرطبي ومنهجه في التفسير، المركز العربي للثقافة والعلوم ص 415.

سيقت على سبيل الترغيب والترهيب كما وقع عند قوله تعالى ﴿يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين﴾ إذ بعد حديثه الطويل عن تاريخ السحر وأنواعه – كعادته كلما وجد أمرا له علاقة بالتاريخ – وبعد تحليله للجوانب اللغوية والفقهية يقول أخيرا : «...وأما ما يحكى من أن الملائكة لما رأوا ما يصعد من ذنوب بني آدم عيروهم وقالوا لله سبحانه هؤلاء الذين اخترتهم لخلافة الأرض يعصونك فيها فقال عز وجل : لو ركبت فيكم ما ركبت فيهم لعصيتموني ... فمما لا تعويل عليه لما أن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل، ولعله من مقولة الأمثال والرموز التي قصد بها إرشاد اللبيب الأريب بالترغيب والترهيب ...» [69].

والإسرائيليات أساسا مرفوضة عند العلماء وفي الصحيح [70] أن ابن عباس قال واللفظ للبخاري : يا معشر المسلمين تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله تقرؤونه محضا لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب فقالوا ﴿هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا﴾[71] ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وقد أنكر ﷺ في حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة[72] ولا يشفع لذلك أن رسول الله ﷺ أباح التحدث عن أهل الكتاب فقال : «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» لأن هذا الحديث مقيد بما لا يعلم كذبه، أو بما يحتمل الصدق والكذب لأن رسول الله ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب[73].

وأحيانا يملك نفسه عند بعض الروايات وغالبا ما تكون مما لا

---

(69) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 1 : 137-138 وقوله (أما ... فمما) أخر فيه جواب أما بنحو أربعة عشر سطرا من الكتابة. وهذه عادته في الكتابة حيث يباعد بين أطراف الكلام مما يعكس نفسه التعبيري.

(70) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام باب قول النبي لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ج 17 ص 102 والحديث أخرجه أحمد ج 3 ص 387.

(71) الآية البقرة 79.

(72) تفسير القرطبي ج 15 ص 210-211.

(73) القصبي محمود زلط : القرطبي ومنهجه في التفسير ص 415-416.

يخضع للفحص، كموقفه من دابة الأرض في قوله تعالى ﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض﴾ [74] فتتضافر روايات عدة دون أن يعلق عليها وهذا الأمر شبيه بحال لون كلب أصحاب الكهف، أو نوع خشب سفينة نوح، مما لا يجدي الاجتهاد فيه. نعم إذا كانت الرواية تعكس أمرا معجزا يبعث على التأمل في ملكوت الله وقدرته، ينص عليه كحاله مع نار إبراهيم في قوله تعالى ﴿قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾ يقول بعد سرده لحكاية ابراهيم مع النمرود: «وهذا كما ترى من أبدع المعجزات فإن انقلاب النار هواء طيبا وإن لم يكن بدعا من قدرة الله عز وجل، لكن وقوع ذلك على الهيأة مما يخرق العادات [75] وهذا الإظهار لمعجزات الله في خلقه إنما هو لهدف العظة والاعتبار. وثمة شيء هام يترجم عناية أبي السعود بالقصص وبمعرفته بثقافة أهل الكتاب، وأرباب التاريخ، وهو حرصه على بدء القصة من أصلها، يكرر ذلك في غير ما حالة. وكمثال على ذلك ما فعله عند شرحه لقوله تعالى ﴿ومزقناهم كل ممزق﴾ يقول هذا التمزيق الذي يضرب به الأمثال حتى لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان ثم يقول : «وأصل قصتهم، على ما رواه الكلبي عن أبي صالح أن عمرو بن عامر من أولاد سبأ وبينهما اثني عشر أبا وهو الذي يقال له مزيقيا بن ماء السماء أخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب ...» [76] القصة. ولا يخفي أثر علمه بالتاريخ والسير في هذا المجال فهو الذي قدم له هذه الروافد في التفسير، ونفس التصرف يسلكه في مواطن أخرى منها عند قوله تعالى ﴿يا عيسى إني متوفيك ...﴾ حيث يقول : «... قال القرطبي والصحيح أن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبريي وهو الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما وأصل القصة : أن اليهود لما عزموا على قتله عليه الصلاة والسلام اجتمع الحواريون ...» [77].

---

(74) أبو السعود : إرشاد العقل السليم ج 4 ص 301 الآية 82 النمل.

(75) أبو السعود : إرشاد العقل السليم : ج 6: 76-77 والآية 69 الأنبياء.

(76) أبو السعود : إرشاد العقل السليم : ج 7 ص 129 والآية 19 سبأ.

(77) أبو السعود إرشاد العقل السليم : ج 2 ص 43 الآية 55 آل عمران.

ولا يقتصر أمر أثر العلم بالتاريخ على هذا الجانب الذي ضخم حجم التفسير فعلا، بل امتد إلى التصحيح والتصويب لبعض ما يراه أبو السعود خطأ تاريخيا أو غيره، سواء تعلق الأمر بسبب النزول، أو معاني عامة يرى فيها عدم التطابق مع المعطيات التاريخية. وكمثال على ذلك قوله تعالى ﴿وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا﴾ (78) يقول : «واختلفوا في أنهم من أي الأقوام فقال الضحاك هم جيل من الترك، وقال السدي الترك سرية من ياجوج وماجوج ... وعن قتادة أنهم اثنتان وعشرون قبيلة سددو القرنين على إحدى وعشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسموا الترك لأنهم تركوا خارجين، قال أهل التاريخ : أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافت، فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافت أبو الترك والخزر والصقالبة وياجوج وماجوج» (79) بل لا يكاد أبو السعود يجد منفذا للتاريخ إلا ويستغله فيلقي بظلاله في هذا المجال ففي قوله تعالى ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ يقول : «... كيف لا وإن القنفذ مع كونه أبعد الأشياء من الإدراك، قالوا إنه يحس بالشمال والجنوب قبل هبوبها فيغير المدخل إلى جحره حتى روي أنه كان بقسطنطينية قبل الفتح الإسلامي رجل قد أثرى بسبب أنه كان ينذر الناس بالرياح قبل هبوبها، وينتفعون بإنذاره بتدارك أمور سفائنهم ...» (80).

وهكذا فالتاريخ إذن ينهض رافدا مساعدا له في كثير من الأحوال المعرفية وهو يخوض غمار معاني التنزيل.

---

(78) الكهف 93.

(79) أبو السعود إرشاد العقل السليم : ج 5 / 244.

(80) أبو السعود إرشاد العقل السليم : ج 6 / 183 الآية 41 النور.

منهجه في التعامل مع القراءات

تـقـديـم

إذا تحدث صاحب "التفسير والمفسرون" عن منهجية أبي السعود في القراءات وأنه «يعرض لها أحيانا ولكن بقدر ما يوضح به المعنى ولا يتوسع كما يتوسع غيره» (81) فإن ذلك يبدو للمتأمل أمرا عاديا، فرغم أن مبحث القراءات يتداخل مع التضلع اللغوي الذي تميز به أبو السعود وأفاد منه، إلا أن الهدف الذي قصده في تفسيره لا يتطلب منه الوقوف كقارئ يعنى بتحقيق ما حققه ذوو الشأن، ورد ما سواه، بل يمكن القول أن المفسر استغل القراءة في حدود ما يمكن أن يوضح به المعنى، وذلك عبر منهج أخضع بمقتضاه القراءات وجعلها في خدمة ما قصده أساسا. ولا شك أن هذا المفسر الذي ركب التفسير بالرأي قد تعامل مع القراءات التي هي نقل ورواية بغير قليل من الجرأة باسم الاجتهاد، وليس ذلك ضروريا للمجتهد. قال أبو عمرو الداني في نص اتفق على مضمونه الباحثون ... بعد ذكره إسكان كلمة بارئكم ويأمركم في قراءة أبي عمرو وبعد حكاية إنكار سيبويه لذلك – والإسكان أصح في النقل وأكثر في الأداء وهو الذي اختاره وأخذ به : «وأئمة القراء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة فلزم قبولها والمصير إليها» (82).

ولابأس أن نعزز اعتماد القراءة على النقل بنص للنويري من كتاب مخطوط بدار الكتب المصرية وضعه شرحا "للطيبة " في القراءات العشر " يقول :

«والاعتماد في نقل القرآن على الحفاظ. ولذلك أرسل عثمان

---

(81) محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون ج 1 ص 350.

(82) ابن الجزري : منجد المقرئين دار الكتب العلمية، لبنان 1980 ص 65 ثم : عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان ج 1 ص 422 (مع بعض الاختلاف في النص بسيط).

رضي الله عنه كل مصحف مع من يوافق قراءته في الأكثر وقرأ كل مصر بما في مصحفهم وتلقوا ما فيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ ثم تجرد للأخذ عن هؤلاء قوم أسهروا ليلهم في ضبطها وأتعبوا نهارهم في نقلها حتى صاروا في ذلك أئمة للاقتداء وأنجما للاهتداء، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم، ولم يختلف عليهم اثنان في صحة روايتهم ودرايتهم، ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم وكان المعول فيها عليهم» [83]. ثم يذكر النص كيف كثر القراء فيما بعد وانتشروا خلفا عن سلف في طبقات «ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا، وفي البلاد انتشروا وخلفهم أمم بعد أمم، وعرفت طبقاتهم واختلفت صفاتهم فكان منهم المتقن للتلاوة المشهور بالرواية والدراية، ومنهم المحصل لوصف واحد ومنهم المحصل لأكثر من واحد. فكثر بينهم لذلك الاختلاف فقام عند ذلك جهابذة الأمة وصناديد الأئمة فبالغوا في الاجتهاد بقدر الحاصل، وميزوا بين الصحيح والباطل، وجمعوا والحروف والقراءات، وعزوا الأوجه والروايات، وبينوا الصحيح والشاذ والكثير والفاذ بأصول أصلوها وأركان فصلوها » [84].

وإذا كانت القراءة تعتمد النقل أساسا – كما تقدم – وليست اجتهادا فما منهج الرجل في تناولها وتوظيفها سواء المتواترة أو المشهورة أو غيرها ؟ قبل الإجابة سأحدد المصطلحات المستخدمة لهذه الأنواع من القراءات :

1 – **القراءات المتواترة :** فالمتواترة منها ما وافقت العربية مطلقا ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرا، وتواتر نقلها ... والذي جمع هذه الشروط الثلاثة في زماننا قراءة الأئمة العشرة التي أجمع الناس على تلقيها بالقبول ومن قال إن القراءات المتواترة لاحد لها إن أراد في زماننا فغير صحيح لأنه لا وجود اليوم لقراءة متواترة وراء العشر، اللهم إن أراد في الصدر الأول فيحتمل [85].

(83) اعتمادا على محاضرات الدكتور نوري معمر 1983-1984 بدار الحديث الحسنية نقلا عن المخطوط السابق ص 406.

(84) المرجع السابق.

(85) ابن الجزري : منجد المقرئين ص 15-16.

2 - **القراءات الصحيحة المشهورة** : وأما القراءة الصحيحة فالقسم الأول منها وهو ما صح سنده بنقل العدل الضابط عن الضابط إلى منتهاه، ووافق العربية والرسم واستفاض نقله وتلقته الأئمة بالقبول فهذا صحيح مقطوع به وهذا الصنف (86) يلحق بالقراءة المتواترة وإن لم يبلغ درجتها.

3 - **القراءات الشاذة** : إلا أن الضرب الذي لم يستفض ولم تتلقه الأمة بالقبول والذي نص عليه الأئمة أنه ما وراء العشرة فممنوع من القراءة به في الصلاة ... منع تحريم لا كراهة ... ولا تجوز القراءة بالشاذ، يقول ابن الجزري : «والصحيح أن ما وراء العشرة فهو شاذ» (87).

كما يدخل في الشاذ القسم الثاني من القراءة الصحيحة وهو الموافق للعربية والصحيح السند إلا أنه خالف الرسم فسمي اليوم بالشاذ لكونه شذ عن رسم المصحف المجمع عليه، وأما ما وافق المعنى والرسم أو أحدهما من غير نقل فلا يسمى شاذا بل مكذوبا يكفر متعمده (88).

ويمكن القول أن مسألة الشذوذ مرت بثلاثة أطوار، الأول : بعد كتابة المصحف حيث أصبحت كل قراءة تخالفه شاذة وسقط العمل بالقراءات التي تخالفه، مع استدراك وهو أن مخالفة القراءة لإجماع القراء رغم كونها موافقة لخط المصحف تعد شاذة كاختيار عيسى بن عمر البصري (89) والثاني يبدأ بعد تأليف ابن مجاهد كتابه (السبعة) سنة 300 هـ أو قريبا منها. ولقد كانت هناك ردود كثيرة

(86) هذا الصنف يمكن تسميته كذلك بالمشهور.

(87) ابن الجزري : منجد المقرئين ص 16.

(88) ابن الجزري منجد المقرئين ص 16-17.

(89) هو عيسى بن عمر أبو عمر الثقفي النحوي البصري معلم النحو ومؤلف الجامع والإكمال، عرض القرآن على عبد الله بن أبي إسحاق وعاصم الجحدري وأثبت الحافظ أبو العلاء قراءته على الحسن، ولا شك أنه سمع منه، وروى عن ابن كثير وابن محيصن حروفا وله اختيار في القراءات على قياس العربية، روى القراءة عنه أحمد بن موسى اللؤلؤي وهارون بن موسى وعبد الملك بن قريب والخليل بن أحمد، قال أبو عبيد القاسم بن سلام : كان من قراء البصرة وكان الغالب عليه حب النصب في القراءة مات سنة تسع وأربعين ومائة انظر ابن الجزري غاية النهاية في الطبقات القراء ة 1 ص 613.

على هذه النقطة الثانية منها ما ساقه ابن الجزري قال : «ولقد فعل مسبع السبعة ما لا ينبغي له أن يفعله وأشكل على العامة حتى جهلوا ما لم يسعهم جهله، ووهم كل من قل نظره أن هذه هي المذكورة في الخبر النبوي لاغير، وأكد وهم اللاحق السابق، وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل هذه الشبهة [90]».
وكخلاصة لما أفرزته حركة الصراع حول السبعة بين تيار ابن مجاهد والتيار المضاد استقر الأمر على القراءات العشر بعد ابن الجزري وهو الطور الثالث، وعدما سواها شاذا لأنه لم يعد يحمل صفات التواتر، وحسم الأمر نهائيا كما قلنا ابن الجزري في كتبه المطبوعة وقد نقل عنه السيوطي [91] كلاما حاسما في هذا الأمر وارتضاه معتبرا ابن الجزري كأحسن من تكلم في هذا الموضوع مسميا إياه بإمام القراء في زمانه يقول : قال في أول كتابه النشر «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها. بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القران ووجب عل الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين. ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم. هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف"» [92] صرح بذلك الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني ومكي والمهدوي وأبو شامة وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه [93].

---

(90) ابن الجزري منجد المقرئين ص 71.

ثم النشر في القراءات العشر له أيضا ج1 ص 36-37، دار الفكر، تصحيح ومراجعة : على محمد الصباغ. عار عن تاريخ الطبع [مع بعض التغيير في النص بمنجد المقرئين وفيه (مسبع هؤلاء - السابق اللاحق)].

(91) السيوطي : الاتقان ج 1 ص 210 مع العلم أن ابن الجزري توفي 833 هـ والسيوطي توفي 911 هـ.

(92) ابن الجزري : النشر في اقراءات العشر ج 1 ص 9.

(93) ابن الجزري : النشر في اقراءات العشر ج 1 ص 9.

1 - عرض للقراءات المتواترة والمشهورة والشاذة :

أ - موقفه من المتواتر والمشهور من القراءات :

يكثر لدى أبي السعود تعبير (القراءات المشهورة) مع شرحه لوجه هذه الشهرة وتعليله وتوضيحه، ومراعاته لحق المقام وإن كان ذلك لا يجعله يخجل أمام تجاوز هذه القراءات بحكم أن أبا السعود طالب معنى بالدرجة الأولى، وتحكيم القواعد اللغوية والبلاغية والنقدية عامة في قبول القراءاة أو رفضها بغض النظر عن كونها قراءة يراعى فيها النقل كما تقدمت الإشارة. وعلى العكس من ذلك نجده يعرض قراءات على أنها مشهورة مع أنها غير واردة لا في السبع ولافي العشر وربما يرجع ذلك إما : لأن المفسر لم يبحثها قبل نقلها، أو أنها من الشواذ إلى غير ذلك من المواقف التي تترجم عن اهتمامه الأساسي الذي هو طلب المعاني التي تخدم الإعجاز، مثلا أو تخدم المذهب الحنفي أو غيره من الأغراض الجزئية التي تظهر معها القراءة كوسيلة فقط طيعة لتشكيل هذه المعان الخادمة لسياق النص العام، وسأذكر بعض الأمثلة الشاهدة على هذه الخلاصة، ففي قوله تعالى ﴿وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾ يرجح قراءة (قاتل) لا (قتل) مؤيدا القراءة بأحاديث لسعيد بن جبير والحسن البصري وجماعة من العظماء وهي أحاديث تثبت أنه لم يقتل نبي في حرب قط ولذا ترجح القراءة الأولى (قاتل)، ويبين أن ذلك واضح على القراءة المشهورة بلا خلاف وأنه على القراءتين الأخيرتين ويعني بهما (قتل) و(قتل) بالتخفيف والتشديد غير ظاهر لا سيما على قراءة التشديد، وإن كان كما قال جوزه بعضهم وأيده حيث يقول : «وهذا واضح على القراءة المشهورة بلا خلاف أي كم من نبي قاتل كائنا معه في القتال ربيون كثير وأما على القراءتين الأخيرتين فغير ظاهر لاسيما على قراءة التشديد وقد جوزه بعضهم وأكده [94] وقراءة ربيون وربيون بالفتح والضم اللتين أوردهما لا وجود لهما في السبع وفي العشر وربما يسير المفسر في إيرادهما على ما اتفق عليه جمهور العلماء من جواز تدوين القراءة الشاذة

---

(94) أبو السعود : إرشاد العقل السليم ج 2 ص 92 والآية 146 آل عمران.

وتعلمها وتعليمها والاحتجاج بها في اللغة والاستعانة بها في بيان المراد من القراءة المتواترة [95].

وفي معرض عرض أبي السعود للقراءات المتواترة أو المشهورة لا ينسى أن يعرض أحيانا لقراءات أخرى ولو لم تكن مشهورة وذلك على سبيل المقارنة اعتمادا على منهجه المقارن للتوضيح، ففي قوله تعالى : ﴿أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا﴾ يقول : وقرئ "تكن" بالجزم على جواب الأمر كما في قوله تعالى ﴿فهب لي من لدنك وليا يرثني﴾ خلا أن قراءة الجزم هناك متواترة وههنا من الشواذ [96] فالتواتر في قراءة الجزم "فهب لم من لدنك" جاء في السبعة لابن مجاهد [97] واختلفوا في الجزم والرفع في قوله ﴿يرثني ويرثُ﴾ فقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحمزة ﴿يرثني ويرثُ﴾ برفعهما وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿يرثني ويرث﴾ جزما فيهما، إلا أن القراءة التي أوردها أبو السعود، (تكن) بالجزم لم أجدها لدى صاحب السبعة وصاحب العشر.

ويراعي أبو السعود حق المقام في الاستدلال للقراءة المشهورة كما في قوله تعالى ﴿ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ فيعرض القراءة على البناء للفاعل من رجع رجوعا ثم يقول والمشهورة (يرجعون) أوفى بحق المقام لإنبائه عن كون هذا الرجوع إليه تعالى بطريق الاضطرار [98]. وأشار صاحب النشر إلى هذا الاختلاف بين يرجعون ويرجعون ويخلص إلى أن كل القراء إلا نافعا وحفصا فإنهما قرآ بضم حرف المضارعة وفتح الجيم [99] وعند قوله تعالى ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ يعرض القراءة المشهورة وغيرها ثم يطرح المعاني المترتبة على كل قراءة ويبين الوجه المحتمل. وهو هنا يرده للقراءة المشهورة معللا وجه هذه

---

(95) أحمد البيلي : الاختلاف بين القراءات ص 112 الدار السودانية الخرطوم / دار الجيل : بيروت ط 1 : 1988.

(96) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 3 ص : 98 الآية الأولى 114 المائدة والثانية 6 مريم.

(97) ابن مجاهد، السبعة في القراءات ص 407.

(98) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 3 /130 والاية 36 الأنعام.

(99) ابن الجزري النشر في القراءات العشر ج 2 /208-209 .

القراءة، فيعرض قراءة خلفك فعلا ماضيا أي من الجبابرة، ولمن خلقك بالقاف أي لتكون آية لخالقك الذي سيكشف تزوير فرعون ثم يقول : وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة [100] مع أن القراءة التي عرضها (لمن خلفك) فعلا ماضيا و(خلقك) بالقاف ليست بالسبع ولا بالعشر.

ويحكم كذلك المقياس البلاغي في القراءات فيقبل على أساس أنها أفصح مثلا في قوله تعالى ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ يقول : وقرئ يعرشون بضم الراء والكسر أفصح [101] ونفس الشيء عند قوله تعالى : ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع في الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك، إنه مصيبها ما أصابهم. إن موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب﴾.

وأبو السعود وإن كان يسمي هنا بعض القراء وقليلا ما يفعل ذلك فإنه يقف عند (إلا امرأتك) بالنصب والرفع محللا لكل وجه وما يترتب عليه وما يؤيده من قراءة، ويشرح معنى الالتفات وأنه بمعنى التخلف لا النظر إلى الخلف، فالنصب (إلا امرأتك) المعنى أنه عليه السلام غير مأمور بالإسراء بها والرفع (إلا امرأتك) كونه مأمورا بذلك ثم يقول : والاعتذار بأن مقتضى الرفع إنما هو مجرد كونها معهم وذلك لا يستدعي الأمر بالاسراء بها حتى يلزم المناقضة لجواز أن تسري هي بنفسها ... وهكذا كي لا يلزم التناقض بين القراءتين (بالنصب والرفع). وأخيرا يقول أبو السعود : فإن ابن عامر قرأه بالنصب وإن كان الأفصح الرفع على البدل، ولا بعد في كون أكثر القراء على غير الأفصح [102] فهو هناك يشير إلى الأفصح في نظره مخالفا في ذلك ابن عامر الذي أخذ القراءة نقلا، وليقول مقابل ذلك إن أكثر القراء على غير الأفصح.

واعتقد أن هذا المحمل الذي حاول به أبو السعود التوفيق بين حالة الرفع والنصب غير سديد لأنها الرواية والنقل، ومهما ثبتت رواية فلا يمكن أن ترد. هذا من جهة ومن جهة أخرى فالتضحية

(100) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 4 /174 والآية 12 يونس.

(101) أبو السعود ارشاد العقل السليم ج 3 /267 الاية 137 الأعراف.

(102) أبو السعود ارشاد العقل السليم ج 4 / 229 الآية 81 هود.

هنا تقع من حيث اللغة والنحو، فحالة الرفع تقتضي مذهبا معينا والنصب يقتضي مذهبا آخر ولا يمكن جعلهما معا قراءة واحدة.

ب – موقفه من القراءات الشاذة :

ويسميها أبو السعود بأسماء مختلفة وربما يمزج في هذه التسميات بين المتطلبات اللغوية ومتطلبات القراءة فينظر إلى القراءة من الزاوية اللغوية بحكم تضلعه اللغوي، ثم إن كثيرا مما هو مشهور عنده شاذ بعد البحث، وربما يبدو هذا من الهفوات التي لم يقع فيها أبو السعود وحده بل غيره كذلك، ومنهم الزمخشري، وقد تتلمذ أبو السعود على تفسيره، وربما كانت الجرأة التي أخذ بها أبو السعود نفسه كمفسر بالرأي هي التي جعلته أحيانا يعرض بعض القراءات على أنها مشهورة مع أنها عكس ذلك. وتحت تأثير البعد اللغوي يسمي قراءات شاذة أحيانا بالمرذولة والضعيفة والشاذة. ويتفق أحيانا أخرى مع غيره في الشاذ، كالأمر عند قوله تعالى ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ حيث يقول : وقرئت بكسر الدال كقوله تعالى ﴿ الحمد لله ﴾ اتباعا لكسر اللام وهي لغة ضعيفة [103] وهي قراءة الحسن البصري أحد الأربعة الزائدة على العشر وهي شاذة باتفاق [104].

ومما يؤكد الاتجاه اللغوي لديه في التعامل مع القراءة عمله مع قوله تعالى ﴿ ان تقول نفس يا حسرتا ﴾.

يقول "ياحسرتا" بالألف بدلا من ياء الإضافة وقريء ياحسرتاه بهاء السكت وقفا، وقريء ياحسرتاي بالجمع بين العوضين، وقريء يا حسرتي على الأصل أي احضري فهذا أوان حضورك [105].

والملاحظ هنا أن أبا السعود تعرض للكلمة من حيث الإضافة كمدلول لغوي مما يؤكد اهتمامه اللغوي بالأساس، ولم يتعرض للإمالة التي اختلف فيها القراء، فمنهم من قرأها بالفتح فأثبت الألف، ومنهم من قرأها بين بين أي بالإمالة الصغرى والإمالة

(103) أبو السعود ارشاد العقل السليم ج 1 / 87 الآية 34 البقرة.

(104) مكي بن أبي طالب : الإبانة ص 120.

(105) أبو السعود ارشاد العقل السليم ج 7 / 260 الآية 56 الزمر.

الكبرى، فأثبت بعدها ألف الإمالة، مما يدل على أنه لا تهمه القراءة في حد ذاتها بل يهمه المدلول اللغوي.

ويمتد ذلك إلى نظره للقراءات من هذه الزاوية فهو يرمي قراءة (اضطره) بكسر الهمزة على لغة من يكسر حرف المضارعة واطره بإدغام الضاد في الطاء بأنها لغة مرذولة ويعلل ذلك قائلا : فإن حروف (ضم شفر) يدغم فيها ما يجاورها بلا عكس [106].

وعند قوله تعالى ﴿والمحصنات من النساء﴾ ينطلق في مناقشتها من الجانب اللغوي فيقول : وقريء على صيغة اسم الفاعل (والمحصنات) وقيل الصيغة للفاعل على القراءة الأولى بالفتح أيضا، وفتح الصاد محمول على الشذوذ وهو هنا الشذوذ اللغوي كما في ملقح ومسهب [107]. والملاحظ هنا أن الذين قرأوا بالفتح هم الأكثرون وهم السبعة باستثناء الكسائي الذي قرأ بالكسر [108].

وقراءته ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾[109] بالكسر. كسر التاء في كنت. التي أوردها غير موجودة لا بالسبع ولا بالعشر. فالغالب أنها من الشواذ. وهذه القراءات التي يذكرها في تفسيره سواء كانت من السبع أو العشر أو غيرهما قد يعلق عليها وقد لا يعلق، وهذا الأمر الأخير من شأنه أن يثير الحيرة والبلبلة في ذهن القارئ.

2 – الأسس التي يقوم عليها منهجه في الترجيح والاستدلال :

يتجلى جانب من إعمال الرأي لدى المفسر في هذه الترجيحات بين الآراء والأقوال والمعاني. وهذا الترجيح استند إلى أسس متنوعة، وقد كان القرآن والحديث واللغة والنحو القراءات المتنوعة من هذه الأعمدة التي استند إليها أبو السعود في ترجيح معاني القراءات التي تطرحها الآيات ...

---

(106) أبو السعود ارشاد العقل السليم ج 1 / 159.

(107) أبو السعود ارشاد العقل السليم ج 2 / 163 الآية السابقة 24 النساء.

(108) ابن مجاهد : السبعة في القراءات ص 230.

(109) أبو السعود. إرشاد العقل السليم ج 130/8 الآية 22 ق.

أ – القراءات والنقل :

كان المنقول هو الأساس المعتمد لدى المفسر إلى جانب القضايا التي يتدخل فيها الرأي بالترجيح أو التعمق أو الاستدلال أو الاستنباط. فبصدد قوله تعالى ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ يقول : «أي فنعم عقبى الدار الجنة. وقرئ بفتح النون والأصل نعم فسكن العين بنقل حركتها إلى النون تارة وبدونه أخرى. وعن النبي ث أنه كان يأتي الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، وكذا عن الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم أجمعين» (110).

وبشأن قوله تعالى ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾، يقول : «جمع أغلف مستعار من الأغلف الذي لم يختن، أن مغشاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل إليها ماجاء به ﷺ ولاتفقهه كقولهم قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه. وقيل هو تخفيف غلف جمع غلاف. ويؤيده ما روي عن أبي عمرو من القراءة بضمتين، يعنون أن قلوبنا أوعية للعلوم، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره. قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبي : يعنون أن قلوبنا لا يصل إليها حديث إلا وعته ولو كان في حديثك خير لوعته أيضا» (111).

فهو يستدل بأحاديث الرسول ﷺ وصحابته والتابعين كمصدر قوة للقراءة، كما قوّى عند قوله تعالى ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبه﴾ القراءة التي بضم الضاد في الكل حيث قال : وهو أقوى لقول ابن عمر رضي الله عنهما قرأتها على رسول الله ﷺ فأقرأني من ضعف وهما لغتان كالفقر والفقر والتنكير مع التكرير لأن المتقدم غير المتأخر (112).

ب – القراءات واللغة.

ونقصد باللغة معناها العام من بنية الكلمة وما يطرأ عليها من تغيير مع الشعر والقصة وطرق التعبير، إلى غير ذلك، فعند قوله

(110) أبو السعود، ارشاد العقل السليم، ج 5 / 18 الاية 24 الرعد.

(111) أبو السعود، ارشاد العقل السليم، ج 1 / 127 -128 الآية 88 البقرة.

(112) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج 7 /66 والآية 54 الروم.

تعالى ﴿ قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ و يسترسل أبو السعود هنا في كلمة الذرية، مما لا يليق إلا بلغوي متضلع فيشرح الكلمة، ويستعرض وزنها، واشتقاقاتها، وما وقع فيها من إعلال، وما أصبحت عليه الكلمة، والمعاني التي أخذتها، وأصل الكلمة، وقراءاتها. ويشير بالضبط إلى القراءة بكسر الذال وهي لغة فيها، ويقول كذلك : وقرأ أبو جعفر المدني بالفتح وهي أيضا لغة فيها [113] وأبو جعفر المدني هذا هو شيخ نافع وهو يزيد بن القعقاع وهو من العشرة [114].

ويستدل أبو السعود بالشعر للقراءة المشهورة في قوله تعالى ﴿لقد كنت في غفلة من هذا ...﴾ حيث يقول بصدد قراءة (كنت) : والتذكير على القراءة المشهورة بتأويل الشخص كما في قول جبلة بن حريث :

يا نفس إنك باللذات مسرورا فاذكر فهل ينفعك اليوم تذكير

ويعتمد القصة كذلك في هذ التقوية لمعنى القراءة فعند قوله تعالى ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين، يقول أئنك لمن المصدقين﴾ بعد عرضه لأوجه قرأءة المصدقين بغير تشديد للصاد وتشديده مرجحا للوجه الأول باعتباره موافقا ومناسبا لقوله تعالى (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) ومسترسلا في توضيح المعنى الحاصل من الوجه الأول للقراءة وأنه المناسب لما سيسوقه من روايات وقصص يقول : أي لمبعوثون ومجزيون من الدين بمعنى الجزاء. أي لمسوسون يقال : دانه أي ساسه ومنه الحديث : العاقل من دان نفسه، وقيل كان رجل تصدق بماله لوجه الله تعالى فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال : أين مالك ؟ قال تصدقت به ليعوضني الله تعالى في الآخرة خيرا منه فقال : أئنك لمن المصدقين بيوم الدين أو من المتصدقين لطلب الثواب ! والله لا أعطيك شيئا. فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم ترابا وعظاما حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبني على إنكار البعث [115]. ويسمى أبو السعود لغة

(113) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج 1/154-156 والآية 124 البقرة.

(114) وقد احتج أبو السعود بقراءته طبعا وأخذ بها.

(115) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 7/192 الآية 51-52 الصافات.

بعض القبائل (كتميم) (وقيس) (وهذيل) وقد لا يسميها ويكني عنها كقوله (على لغة كذا) ويذكر طرق العرب في تعبيرها [116].

ج – القراءات والنحو :

تنبغي الإشارة أولا إلى أن من المفسرين والنحاة من لا يتحرج من الاعتراض على بعض الكلمات في بعض القراءات المتواترة اعتماداعلى قياس اللغة وقواعد النحو تارة، وعلى حجة عقلية تارة أخرى. ولم يكن الزمخشري أقل هجوما على بعض القراءات المتواترة من الطبري، وابن خالويه، فقد اعترض على قراءة (نافع) برواية (ورش) لقوله تعالى ﴿أأنذرتهم﴾. فإن (ورشا) يبدل الهمزة الثانية ألفا ويمدها مدا لازما فتلتقي وهي ساكنة مع النون الساكنة، وطعن الزمخشري في قراءة الإبدال هذه قائلا : لأنه يؤدي إلى التقاء الساكنين على غير حده، وحده أن يكون الأول حرف لين والثاني حرفا مدغما نحو قوله والضالين – وخويصة والثاني اخطاء طريق التخفيف لأن تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها أن تخرج بين بين فأما القلب ألفا فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهمزة رأس وقد تصدى للرد عليه الصفاقسي بقوله : «هذه القراءة نفسها أقوى شاهد فهي قراءة صحيحة متواترة فلا تحتاج إلى شاهد آخر» [117]. ولقد أنصف ابن الحاجب من المالكية أئمة القراءات الذين ثبتت قراءتهم بالتواتر بقوله «إذا اختلف النحويون والقراء كان المصير إلى القراء أولى لأنهم ناقلون عمن ثبتت عصمته من الغلط، ولأن القراءة ثبتت تواترا وما نقله النحويون ثبت عن طريق الآحاد ... ولأن إجماع النحويين لا ينعقد بدون القراء لأنهم شاركوهم في نقل اللغة وكثير منهم من النحويين [118].

وإذا كانت السلامة كما يقول النحاس عند أهل الدين – إذا صحت القراءتان – ألا يقال : إحداهما أجود لأنهما جميعا عن

---

(116) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 5 /5 ج 162/2 ج 1 /93 159.

(117) علي النوري الصفاقسي : غيث النفع في القراءات السبع : ص 32 والآية السابقة 6 البقرة. وانظر الزمخشري : ج 1 ص 154-155.

(118) علي النوري الصفاقسي : غيث النفع في القراءات السبع : ص 62-63 ثم أحمد البيلي الاختلاف بين القراءات ص 90.

النبي ﷺ فيأثم من قال ذلك، وكان رؤساء الصحابة ينكرون مثل هذا. إذا كان الأمر كذلك، فإن أبا السعود نجده يحكم أحيانا بأن قراءة أفصح من أخرى كقوله إن قراءة الرفع أفصح من النصب في قوله تعالى ﴿إلا امراتك﴾[119] بالرفع والنصب مع أن ابن كثير وأبا عمرو قرأ بالرفع، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بالنصب[120]. وكذا ترجيحه قراءة الكسر في قوله تعالى ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ على قراءة الفتح (جَد) فيرى أن الكسر أظهر من الفتح[121]. وإذا كانت الغاية التي تغياها أبو السعود في تفسيره هي التي وجهت نظرته للقراءة فتعامل معها على أساس المعنى الملائم، فلا أعتقد أنه يصل إلى حد من يدخل تحت قولة ابن الجزري «وليحذر القارئ الإقراء بما يحسن في رأيه دون النقل أووجه إعراب أو لغة دون رواية» [122]. إذ أن أبا السعود لا يطرح قراءات جديدة بقدر ما يرجح بين قراءات ويحكم بجودة بعضها على بعض في مضمار الفصاحة وملاءمة المقام. وقد رأى علماء القراءات أن المتواتر منها لا يخالف العربية، وعلى العكس تلتقي مع مذهب أو رأي نحوي بينما الشاذة جاء فيها ما يخالف القواعد النحوية. ولأجل أن يخرجوا الشواذ من مجال المتواترات ويقوا المتواترة من تسربها إليها وضعوا شرط مطابقة العربية ومطابقة الرسم وهم بذلك حسب ابن الجزري لم يقصدوا إخضاع القراءات للقواعد النحوية وإلا لما ناقشوا بعض النحاة وردوهم فيما رفضوا من قراءات متواترة أمثال قراءة حمزة ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ﴾[123] بالجر، وقراءة ابن عامر﴿ قتل أولادهم شركائهم﴾[124]، بالفصل بين المضاف والمضاف إليه بمفعول المصدر. ومنه ندرك يقول ابن الجزري - أن هذا الشرط كان وقائيا كسابقه ولا يقصد منه نفي أن تكون القراءات مصدرا من مصادر القواعد النحوية ومقياسا أعلى تقاس به صحتها [125].

(119) أبو السعود إرشاد العقل السليم، ج 4/229.
(120) ابن مجاهد، السبعة في القراءات ص 338.
(121) انظر أبا السعود، ارشاد العقل السليم ج 9 ص 43 والآية 3 الجن.
(122) الفضيلي : القراءات القرآنية : تاريخ وتعريف ص 56.
(123) النساء 1.
(124) الأنعام 137.
(125) الفضيلي : القراءات القرانية تاريخ وتعريف ص 121-122.

وسنلاحظ كيف يؤثر النحو على القراءة ويوجهها في طلب معان تتغير بتغير التوجيه النحوي ففي الآية : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره ﴾ (126)، وسأورد النص بحذافيره لتقديم صورة عن أثر النحو على المعنى مما يصور تضلع أبي السعود في ميدان النحو كما سبقت الإشارة، يقول : «هذا وقد قيل : إن قوله تعالى أو كفارة عطف على جزاء، فلا يبقى حينئذ في النظم الكريم ما يقدر به الطعام والصيام. والالتجاء إلى القياس على الهدي تعسف لا يخفى هذا على قراءة جزاء بالرفع وعلى سائر القراءات فقوله تعالى ﴿أو كفارة﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة معطوفة على جملة هو من النعم، وقريء أو كفارة طعام مساكين بالإضافة لتبيين نوع الكفارة، وقرئ طعام مسكين على أن التبيين يحصل بالواحد الدال على الجنس، وقرئ أو عدل بكسر العين والفرق بينهما أن عدل الشيء ما عادله من غير جنسه كالصوم والإطعام وعدله ما عدل به في المقدار كأن المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول وذلك إشارة إلى الطعام، وصياما تمييز للعدل والخيار في ذلك للجانبين عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله وللحكمين عند محمد رحمه الله» (127). ونلاحظ هنا رد أبي السعود لوجه نحوي نتج عنه فهم رماه بالتعسف الواضح وفي نفس الوقت نلمس لديه سمات العالم الموضوعي الذي يتتبع كل وجه ويبين نتائجه إلى أن يخلص إلى الأحكام المستنبطة ومن يقول بها من الأئمة والفقهاء. وفي مثال آخر نجده يحاول تتبع حالة الرفع والنصب وما يترتب عن كل حالة من معان في سياق النظم الكريم. وكيف ينسب بعض الآراء للبصريين ويردها ويبين أنها ليست بصحيحة، معللا وجه ذلك، مما يدل على رسوخ قدم الرجل في النحو. فعند الآية ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ (128) يعرض قراءة (يوم) بالرفع

(126) المائدة. 95.

(127) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 3 / 79-81.

(128) المائدة 119.

والإضافة، ويبين المراد بالصادقين وأنهم المستمرون في الدارين على الصدق، ثم يقول : وبه يتحقق المقصود بالحكاية من ترغيب السامعين في الإيمان برسول الله ﷺ لا كل من صدق في أي شيء كان، ضرورة أن الجاني المعترف بجنايته في الدنيا لا ينفعه صدقه ... ويقول : وهذا القراءة هي التي أطبق عليها الجمهور وهي الأليق بسياق النظم الكريم وسياقه ويعرض لقراءة (يوم) بالنصب فيقول وقد قريء (يوم) بالنصب ويسترسل في تحليل وتعليل هذا الوجه إما على أنه ظرف لقال فهذا حينئذ إشارة إلى قوله ﴿أأنت فعلت ...﴾ إلخ، وإما على أنه خبر لهذا فهو حينئذ إشارة الى جواب عيسى عليه السلام أي هذا الجواب منه عليه السلام واقع يوم ينفع ... إلخ، أو إلى السؤال والجواب معا. ثم يعرض وجها آخر فيقول : «وقيل هو خبر ولكنه بني على الفتح، وليس بصحيح عند البصريين، لأنه مضاف إلى متمكن». ويختم بقوله « وقريء يوم بالرفع والتنوين كقوله ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ...﴾ الآية[129].

فأبو السعود يعرض الأقوال المنقولة والمبنية على أسس نحوية محللا لها، ومعللا، ومرجحا بالرد والقبول، وعارضا ما ينظر إلى ذلك التعبير في الآيات الأخرى.

ولنلاحظ صنيعه من خلال مثال آخر - وإن كان له طابع صرفي أكثر - وذلك عند قوله تعالى ﴿ وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار ...﴾ [130].

يقول أبو السعود : «والمراد بالرجل الميت (يورث) على البناء للمفعول من ورث لا من أورث خبر كان أي يورث منه .. وأما تجويز أن يكون يورث من القراءة المشهورة مبنيا للمفعول من أورث على أن المراد به الوارث والمعنى وإن كان رجل يجعل وارثا لأجل الكلالة ... ولذلك الوارث أخ أو أخت ولكل واحد منهما السدس فبمعزل من

---

(129) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 3 / 102 الآية 48 البقرة.

(130) النساء 12.

الســــداد» [131]، ثم يعلل أبو السعود ذلك قائلا : «أما أو لا فلأن المعتبر على ذلك التقدير إنما هي الأخوة بين الوارث وشريكيه في الإرث من أخيه وأخته لا ما بينه وبين مورثه من الأخوة التي عليها يترتب حكم الإرث وبها يتم تصوير المسألة. وإنما المعتبر بينهما الوراثة بطريق الكلالة وهي عامة لجميع صور القرابات التي لا تكون بالولادة، فلا يكون نصيبه ولا نصيب شريكه مما ذكر بعينه، ومن ادعى اختصاصها بالأخوة لأم متمسكا بالإجماع على أن المراد بالكلالة ههنا أولاد الأم فقد اعترف ببطلان رأيه من حيث لا يحتسب كيف لا ومبناه إنما هو الإجماع على أن المراد بالأخوة في قوله تعالى ﴿وله أخ أو أخت﴾ هو الأخوة للأم خاصة حسبما شهدت به القراءة المحكية والآية الآتية في آخر السورة الكريمة، ولو لا أن الرجل عبارة عن الميت والأخوة معتبرة بينه وبين ورثته لما أمكن كون الكل أولاد الأم. ثم إن الكلالة كما نبهت عليه باقية على إطلاقها ليس فيها شائبة اختصاص بأولاد الأم فضلا عن الإجماع على ذلك وإلا لا قتصر البيان على حكم صورة انحصار الورثة فيهم. وإنما الإجماع فيما ذكر من أن المراد بالأخ والأخت من كان لأم خاصة، وأنت خبير بأن ذلك في قوة الإجماع على أن يورث من ورث لا من أورث فتدبر. وأما ثانيا : فلأنه يقتضي أن يكون المعتبر في استحقاق الورثة من الفرض المذكور أخوة بعضهم لبعض من جهة الأم فقط لما ذكر من الإجماع مع ثبوت الاستحقاق على تقدير الأخوة من الجهتين، وأما ثالثا : فلأن حكم صورة انفراد الوارث عن الأخ والأخت يبقى حينئذ غير مبين وليس من ضرورة كون حظ كل منهما السدس عند الاجتماع كونه كذلك عند الانفراد. ألا يرى حظ كل من الأختين الثلث عند الاجتماع والنصف عند الانفراد. وأما رابعا : فلأن تخصيص أحد الورثة بالتوريث وجعل غيره تابعا له فيه مع اتحاد الكل في الإدلاء إلى المورث مما لا عهد به» [132].

وهذا النص على طوله يعكس صورة عن فقه الرجل بعلم المواريث وتوجيهه للقراءة انطلاقا من الناحية الصرفية، ودفعه لقراءة أخرى

(131) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 2 / ص 151 - 152.

(132) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 2 / ص 152 - 153.

على أهميتها لدى البعض ممن يعتبرها مشهورة. كما اشار أبو السعود لذلك مستغلا الآيات ومصادر التشريع كالإجماع مما يكمل معنى الآية المقصود، فيرى أن الفعل (يورث) هو من أصل ورث على البناء للمفعول والرجل هو الميت لا من (أورث) فيكون المراد بالوارث هنا هو الرجل ولذلك الوارث أخ وأخت. كما يرى أن هذا المحمل الأخير على تلك القراءة بمعزل عن السداد معللا ذلك بنقاط أربع يفصلها كما تقدم. ولا شك أن أثر الوظائف التي مارسها من قضاء وإفتاء واضح على أسلوب معالجته ... فهو يبعد عن السداد ما يراه بعيدا، وينبه لأشياء في تحليله، ويقول عن أخرى أنه لا عهد له ولغير بها، ويعول في مسائل على خبرة المستمع داعيا إياه إلى التدبر ... وهكذا يناقش الأمور منوعا أسلوبه الجامع لكل الفنون في وحدة منسجمة، ولا عجب فالتفسير وحدة منسجمة من كل هذه العلوم والفنون لا تنفصم.

د - قراءته والقراءات الأخرى المؤيدة :

وغالبا ما يكون لهذه القراءات معنى التعضيد والتأييد والتقوية كما يشير لذلك أبو السعود نفسه حينما يورد هذه القراءات، وهو هنا غالبا ما يشير لرجال هذه القراءات كابن عباس، وابن مسعود، وأبي، فمثلا عند قوله تعالى ﴿ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألذ الخصام﴾[133]، يقول : وقرئ ويشهدِ الله فالمراد بما في قلبه ما فيه حقيقة، ويؤيده قراءة ابن عباس رضي الله عنهما والله يشهد على ما في قلبه .. وقرئ ويستشهد الله» [134]. فأراد أن يؤكد هنا المعنى المقصود من يشهد عليه الله وهو حقيقة ما يوجد بقلب المرء. والتأييد كذلك بشأن كلمة (مصر) بصدد قوله تعالى ﴿اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتهم﴾ يقول : «وقرئ بضم الباء والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيئين. وقيل أريد به العلم وإنما صرف لسكون وسطه أو لتأويله بالبلد دون المدينة، ويؤيده أنه في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه غير منون ...» [135]. فيرجح هنا وجه عدم

(133) القرة 204.

(134) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 1 / ص 211.

(135) أبو السعود إرشاد العقل السليم ج 1 / 107 والآية 61 البقرة.

صرف كلمة مصر وفي الآية ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾. يقول بشأن الكفار : «وقرئ بالجر عطفا على الموصول الأخير ويعضده قراءة أبي (ومن الكفار) وقراءة عبد الله ﴿ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ فهم أيضا من جملة المستهزئين» [136].

وينطلق أبو السعود في تعامله مع كل هذه الأمور وفق معايير في توجيه القراءة وترجيحها كملاحظة السياق، فنجد كثيرا من المصطلحات : كالتوجيه، والتقوية، والتعضيد، والتعليل، والتأييد، إلى غيرها، مع بعض المصطلحات النقدية البلاغية التي تتناثر في ثنايا عرضه لتفسيره عامة، وللقراءة خاصة.

قيمة تفسير أبي السعود

على المستوى العلمي : يعتبر عمل أبي السعود عملا علميا هاما له مكانته بين التفاسير قديمها وحديثها، ولا نقول بشأنه ما قيل في بعض التفاسير بأن فيها كل شيء إلا التفسير، بل فيه التفسير وما يخدم التفسير ؛ حيث وظف أبو السعود علوما وفنونا عديدة لهذا الغرض، وأحسن توظيفها عبر معالجة دقيقة ومحترمة في تناول النص القرآني لا تشي إلا بالاطلاع الواسع لصاحبه على هذه العلوم. خصوصا وأن الرجل كان مشاركا موسوعي الثقافة، وفوق إتقانه للعلوم الضرورية للمفسر كان يلم بالعلوم العقلية كالفلسفة والمنطق والجغرافية والطب والحساب، مما نجد إشاراته واضحة في صلب تفسيره.

وأهم عنصر يمثل الجانب العلمي في هذا العمل هو المنهجية العلمية المتبعة في التفسير، والتي سلكها وهو يوضح كلام ربه، انطلاقا مما أوتيه من علم وإيمان. ولقد كان هادفا في انتقائه لمصادره، ماذكره منها وما لم يذكره كما كانت الغاية التي يتغياها في تفسيره باعثا له على التوثيق بين المأثور والمعقول، وهو إن اعتمد الرأي فليس بمعنى الهوى والاستحسان، لكنه المبني على الدليل من لغة أو بلاغة أو نحو ... وجها ذلك لخدمة العقيدة السنية ومعارضا

(136) أبو السعود، إرشاد العقل السليم ج 3 / 53. والاية الأولى 57 المائدة والثانية 95 البقرة.

تأويلات الكشاف في بعض السور وإن سرى منهج الزمخشري في التأويل في عدة أعمال تفسيرية بعده، تبنت لنفسها خط الاتجاه البياني، في وقت اعتمد فيه البغوي اتجاها آخر يقصد جمع الروايات الموثوق منها أساسا - كما يرى البعض - والمتصلة حلقاتها برسول الله ﷺ وصحابته وتابعيهم ممن استقى من صاحب الرسالة روح فهمه للقرآن وسمع منه مباشرة تفسيره.

ونجد الموضوعية العلمية وعدم التعصب في تعامل أبي السعود مع المذاهب الفقهية ؛ فيسوق آراء المذاهب الأخرى في اعتدال ودون تعصب، وهو اعتدال نلاحظه كذلك بخصوص تعامله مع المدارس النحوية حين يلائم بينها ويأخذ بما يوافق المعنى الذي يقصده.

كما تتجلى علمية هذا العمل في الأهداف التي استهدفها والوسائل التي استخدمها لبلوغ هذ الأهداف- فلإبراز ظاهرة الاعجاز بأنواعه وعلى الخصوص البياني منه ركز الرجل على تعمق أسرار البلاغة القرآنية والتعبير القرآني والنظم القرآني وما يمثله ذلك من وحده تجسد وحده المصدر والمنطلق.

وإذا كان لتفسيره هذا الهدف العام الذي ينشده فقد جند له علوما هيمنت على غيرها ومنها علوم الآلة. كما نجده وظف إلى جانب ذلك علوما أخرى تقف في مستوى ثان وليست لها أهمية بالنسبة إليه إلا باعتبار خدمتها للمعنى الذي يقصده. وقد لا يهمه أمر تحقيق وتوثيق هذه العلوم وذلك كبعض القراءات والأحاديث خصوصا المطروقة في باب الفضائل. ويسايره في هذا الاتجاه كل من الزمخشري والبيضاوي، أما البغوي على رأي البعض والألوسي باتفاق فاحترس في هذا الجانب. وفي الجانب الاخباري من اسرائيليات وقصص غريبة نجد البغوي لا يعقب عليها غالبا، ويعقب أبو السعود والبيضاوي والألوسي بالنقد أحيانا والترجيح أخرى والسخرية أحيانا أخرى : خصوصا عند أبي السعود حيث يقول مثلا (تبّا لهم ...) مع تفاوت بين هؤلاء المفسرين في مثل هذه المواقف الجارحة.

وقد عرف أبو السعود بنظرته العميقة للآيات الكونية والإنسانية فاستغلها لخدمة غرض العبرة والبرهنة على وحدانية الله كل هذه الأشكال من التوظيف التي انتهجها أبو السعود تسير في شكل عمل متكامل ومنسجم وفق خطة له تختلف عن خطة القرطبي مثلا أو البغوي أو غيره. فالغاية لاشك تؤثر على نوع الوسائل المستخدمة للوصول الى هذه الغاية ولقد كان عمل الألوسي بعد أبي السعود موسوعة علمية حقا استوعبت كل جهود المفسرين قبله. إلا أن عمله لم يكن مجرد تجميع واستيعاب للثروة السابقة، بل كان له منهجه الذي تبينت قسماته فيما سبق، والذي يعد تطويرا لعمل أهل الرأي قبله، مع إضافة المسحة الإشارية، فلا يتكلم في علم إلا وتعتقد أنه لا يعلم إلا هذا العلم حتى يأتي على كل العلوم خصوصا العلوم المساعدة وسيلة المجتهد في استنباط الأحكام.

ومما يدل على الأهمية العلمية لتفسير أبي السعود ما ثار حوله من حديث وتأليف وتعليق، فقد تعقبه جلة من العلماء بالتعليق والشرح كالشهاب المصري في "خبايا الزوايا" وكتعليق الشيخ أحمد الرومي الأقحصاري (ت 1041 هـ) من الروم إلى الدخان، وللتفسير ديباجة طويلة شرحها محمد بن محمد الحسيني المدعو بزيرك سنة 1003 هـ. ومنها تعليق للشيخ رضي الدين بن يوسف المقدسي علقها إلى قريب من النصف.

وقد طبع التفسير بهامش مفاتيح الغيب للرازي إلى جانب طبعتنا المعتمدة، ونجد عليه (حاشية تفسير أبي السعود) وهي عبارة عن مخطوط بالخزانة العامة بتطوان (رقم 179 إلى 186) يقع في ثمان مجلدات ضخمة من تأليف العلامة الشيخ إبراهيم السقا، بداية المخطوط «الحمد لله الذي أودع بدائع مباني القرآن ودائع الأسرار ... أما بعد فيقول العبد الفقير إلى المولى الرحيم عبد السقا ابراهيم : هذا تقرير لطيف وتحرير منيف لإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للملا أبي السعود عليه سحائب الرحمة والجود». ويمكن القول إن المخطوط ليس حاشية على تفسير أبي السعود بل حاشية على الثقافة الإسلامية والعربية برمتها.

وهو مليء بالاستطرادات التي أفقدته موضوعه وجعلته بدون موضوع مع إفاضته في الجوانب اللغوية العامة وتطويل ممل في المعالجة، مثلا عند تناوله (بسم الله الرحمن الرحيم) يستغرق الكلام عنده من صفحة 71 إلى صفحة 224، ثم حديثه عن الفاتحة بعد ذلك إلى صفحة 523، حيث تبدأ سورة البقرة وبذلك يستنفذ الجزء الأول أو يكاد.

على المستوى الأدبي : كان المفسر أديبا، والأدب جانب من شخصيته العلمية والثقافية، ولعل هذا الجانب قد أثر كثيرا على تناوله لعمله، وخلع عليه مسحة أدبية باعتبار الصياغة والنسخ، هذا فوق الاتجاه العام الذي يندرج التفسير تحته وهو الاتجاه اللغوي البياني مما يضرب في صميم التخصص الأدبي، فالتفسير وثيقة أدبية هامة أسلوبا وتحليلا. والصياغة التي تميز بها أبو السعود والأسلوب الجزل القوي الذي عبر به مفسر غير عربي - ولم يسلك ديار العرب - شكل لحمة أدبية طبعت عمله من أول جزء لآخر جزء، وإن تنقل بين الفنون والعلوم وهو يعالج موضوعه وهو ما قد نفتقده عند غيره من المفسرين. فالزمخشري مثلا نشعر لديه - على جلالة قدره - بجفاف في الأسلوب والمعالجة عند انتقاله من اللغة إلى القراءة إلى البلاغة إلى القصة، فلا تشعر بتلك اللحمة الأدبية التي تذوب وتذيب كل المعلومات في بوتقتها. ونفس الشيء عند البغوي الذي يحشر ما أمكن من الروايات والقصص المتتابعة دون حبكة فنية. فلكل أسلوبه في التعبير فرضه عليه موضوعه وتكوينه، ولقد تميز أبو السعود بأسلوبه وقوة نفسه لدرجة أنك تجده يستمر في الحديث بعد فعل الشرط مثلا صفحة كاملة دون أن يورد الجواب إلى مستوى قد يفقد معه القارئ غير المتمرس بتفسيره الخيط الرابط بين الشرط وجوابه، هذا فوق أن هذا العمل بصفة عامة يندرج في إطار الاتجاه الأدبي.

وعلى المستوى التاريخي : يسجل تفسير أبي السعود حضوره البارز في فترة زمنية معينة. وأكثر من هذا تستطيع أن تستخلص سمات الفترة التاريخية بملابساتها السياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية من خلال المعلومات التي تضمنها. ومما زاد من ربط

التفسير بالعصر قدرة أبي السعود وعبقريته إذ مزج بين التفسير وبين مشاكل العصر إلى درجة أنه يحكي لك تارة عن خروجه للغارة في البلقان، ويصف أخرى ما خلف الزمان في هذه المدينة التي كانت عامرة، ويصف أخرى ما خلف الزمان في هذه المدينة التي كانت عامرة، وأحيانا أخرى يذكر أبناء الزمان وأخلاقهم وعقيدتهم، وهكذا تصدر من المفسر فلتات لسان تفسيرية تصور الواقع، وتربط التفسير بالآونة التاريخية، فوق كونه عملا علميا ساميا يحاول المفسر من خلاله إبراز مراد الله تعالى بقدر طاقة إنسان في عصر معين.

ثم إن هذا التفسير يجد مرحلة تاريخية باعتبار ما لحق وما سبق فأثر السابق واضح عليه وأثره واضح على اللاحق بعده مما جعله حلقة متميزة في عقد التفاسير ليس بإمكانه أن يكون قبل أو بعد لارتباطه بزمنه، فهو يصور أحداث العصر والصراع الدائر بين الأشاعرة والمعتزلة وبين الفرق الأخرى. ويؤرخ لموقف كل فرقة أو مذهب، والصراع المحتدم بينها، و"صراع مع الملاحدة ودفع مفترياتهم. كما يمثل مرحلة من مراحل سيادة المذهب الحنفي في الدولة العلية العثمانية في الوقت الذي كان فيه الكشاف في عصره يستوعب كل مسائل الاعتزال التي تفرقت قبله. وقد أشار الزمخشري في مقدمة تفسيره إلى أنه رأي الاخوان في الدين من أفضل الفئة الناجية العدلية ويعني بهم المعتزلة كلما رجعوا لتفسير آية يبرز لهم الزمخشري بعض حقائقها إلا ويفيضون في الاستحسان والتعجب فراجعوا الزمخشري في أمر التفسير فنزل عند اقتراحهم، إلا أنه وبعد أن سيطر الكشاف فترة من الزمن جاء إرشاد العقل السليم ليحل محله وينسخه، فجسد فعلا اهتمام هذه الفقترة بجميع مستويات الاهتمام العلمية والاجتماعية والسياسية والمذهبية والعقائدية عبر تحليل لم يهمل الواقع الذي لم يغب عن بال المفسر وهو يتعامل مع آيات الله البينات.